I. صدمة المستقبل الأولى : تجليات الموجة الثالثة

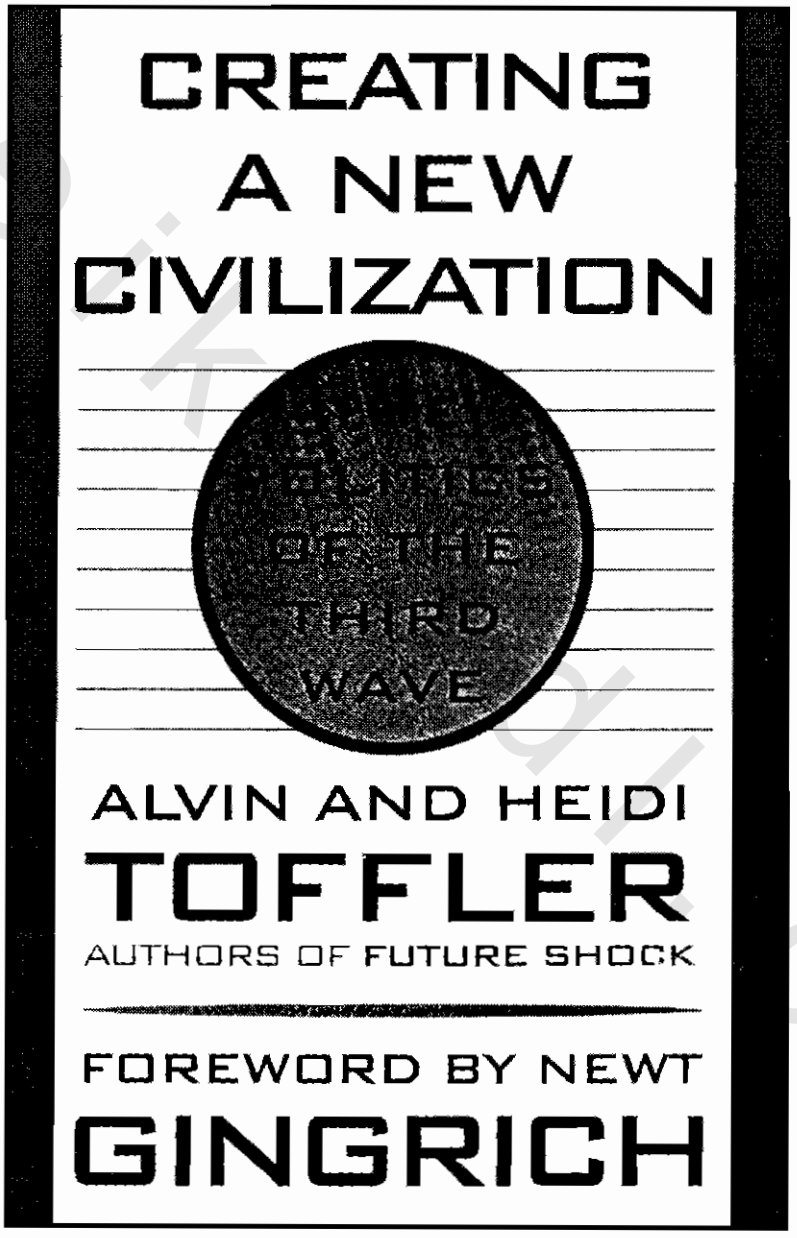

obeikandl.com

I. صدمة المستقبل الأولى : تجليات الموجة الثالثة

فى مقال بمجلة «الأفق Horizon» عام ١٩٦٥صك توفلر مصطلحه الأشهر «صدمة المستقبل» . ومنذ ذلك الحين شاع المصطلح ، وصار علامة للكثير من الأنشطة المتباينة ... أفلام ومسلسلات وشركات ومجموعات فكرية... الخ . لقد أجريت منذ أيام (١٠ يناير ٢٠٠٣) بحثاً على الإنترنت عن هذا المصطلح فوجدت أكثر من مليون وربع موقع (١,٢٨٠,٠٠٠) تتخذه موضوعاً لها . ومع ذلك فقد أصيب المصطلح «بالتقادم Transience» الذى أشار إليه توفلر ، باعتباره مع «التسارع acceleration» القوتان التوأم ، اللتان تكمنان وراء صدمة المستقبل ، التى عانى منها الكثيرون نتيجة لصعوبة التكيف مع التغير الذى تحدثان . لقد اكتملت ملامح مشروع توفلر المستقبلى فى الفترة من ١٩٧٠ – ١٩٩٥ من القرن العشرين . وقدم هذه الملامح فى كتاب هام تحت عنوان «صياغة حضارة جديدة : سياسة الموجة الثالثة» . ولقد صدر هذا الكتاب عن دار نشر ونر عام ١٩٩٥ ، وشاركه فيه كالعادة زوجته هايدى توفلر .

ولاقتناعى بأهمية فهم هذا المشروع قبل التعرض لصدمة المستقبل الجديدة ، التى تعد محصلة لما فى هذا المشروع من «إشارات موحية» لها ولما حدث له من تقادم فى آن واحد ، فضلت أن أورد بتصرف عرضى لهذا الكتاب الذى نشرته فى سلسلة إقرأ ضمن كتاب «علم وحلم» الذى صدر عن دار المعارف عام ١٩٩٦ ، والذى صدرته له طبعة ثانية عن مشروع مكتبة الأسرة ودار العين عام ٢٠٠٢ . ثم نتعرض بعد ذلك إلى الإشارات الجنينية الموحية المذكورة وأشكال التقادم ، التى تمكننا من الحديث عن الفكرة الداعية إلى تجاوز الإنسانية ، وما تحدثه فى رأينا من صدمة جديدة .

أولاً : صياغة حضارة جديدة :
سياسة الموجة الثالثة

هذا كتاب ذو طابع تركيبى خاص يتعلق بالفكر المستقبلى بشكل عام . وعندما عزمت على الكتابة عنه وعن مؤلفيه الفين توفلر وزوجته هايدى ، طاف بذهنى سؤال متكرر : هل نضجت الدراسات المستقبلية وصارت علماً ، كما يرى البعض ممن صكوا له اسماً مزوداً باللوجى الشهيرة (علم المستقبل Futurology) ومن المهم ونحن نتعرض لهذا الأمر أن نذكر حقيقتين أساسيتين :

أولاً : إن الدراسات المستقبلية الجادة تلتزم بمناهج البحث فى العلوم الاجتماعية التزاماً كاملاً ، وتستخدم فى ذلك الكثير من الأدوات التحليلية والنماذج الرياضية ، التى تستند إليها فى التنبؤ والاستشراف .

ثانياً : إن غالبية هذه الدراسات تركز على دور الثورة العلمية والتكنولوجية كقوة دفع رئيسية ، تقف وراء التطور والتغيير فى المجتمعات المحلية والإقليمية ، وفى العلاقات الدولية ، لأن هذه الثورة أوجدت واقعاً كوكبياً جديداً ، بما أحدثته فى الاتصالات والمعلومات ، وبما استحدثته من تقانات يمكن توظيفها فى التعمير أو التدمير . وهذا يستوجب القيام بالدراسات المستقبلية المستفيضة ، التى توضح الجوانب المضيئة لسيناريوها التوظيف للتعمير ، والجوانب المظلمة لسيناريوهات التوظيف للتدمير . ولعل التركيز على العائد المستقبلى للتقدم العلمى والتكنولوجى يمثل موضوعاً من أفضل الموضوعات التى تناقش أدبياتها فى هذا الباب ، ومع ذلك ، يجب أن نعترف بأن الغالبية العظمى من الدراسات المستقبلية قد مرت بأزمة حادة ، لقصورها بدرجة واضحة عن التنبؤ بأحداث أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات ، وأن الفكر المستقبلى الغالب فى أعمال توفلر وغيره من المفكرين المستقبليين نعد أكثر نضوجاً . وهذا ما عالجته ببعض التفصيل فى موضع آخر تحت عنوان «أزمة الدراسات المستقبلية» هندسة المستقبل ، المكتبة الأكاديمية ١٩٩٢ . وإن كانت قناعتى تزداد

– وقد أشرت إلى ذلك فى الكتاب المذكور – أن التقارير الاستراتيجية غير الشائعة كانت تحوى الكثير ، مما يجعل «حدة» الأزمة مظهراً من مظاهر الحرب الباردة وأسرارها ، ولا أظن أن عالم ما بعد الحرب الباردة اليوم يخلو من الأسرار .

نعود إلى ألفين وهايدى توفلر ، فنجدهما يقدمان الفكر المستقبلى بشكل يجعله إطاراً لإجراء الدراسات المستقبلية ، وأنهما قد شاركا فى تقديم الاستشارات الاستراتيجية عالية المستوى فى أمريكا وخارجها ، بل نجد أن كتابهما الأخير ، الذى نعرضه اليوم ، قد كتب مقدمته نويت غنغريتش ودعا كل أعضاء الكونجرس آنذاك إلى قراءته بعناية . ولأهمية انتاجهما فى «مكتبة المستقبل» أرجو ألا يضيق صدر القارئ بذكر ما قدماه من كتب مؤلفة ومحررة ، خصوصاً وأن الكتاب الأخير خلاصة مركبة من كتبهما السابقة ، وأن أفضل طريقة لعرضه هى استعراض هذه الكتب :

الكتب المؤلفة :

- مستهلكو الثقافة .
- صدمة المستقبل .
- تقرير عن الثورة البيئية .
- الموجة الثالثة .
- نظرات ومقدمات .
- الشركة المتكيفة .
- تحول القوة .
- الحرب وضد الحرب .
- صياغة حضارة جديدة : سياسة الموجة الثالثة .

والكتب المحررة :

- المستقبلى .
- تعليم من أجل الغد .
- المبنى المدرسى والمدينة .

وكقارئ لتوفلر (وأرجو أن نكتفى فى باقى الحديث بذكر اسمه ، بعد أن أكدنا مشاركة زوجته له فى أعماله ، وظهور اسمها بصراحة كمشاركة فى تأليف أكثر من كتاب) ، أقول كقارئ لتوفلر : أعتبر أن صدمة المستقبل (١٩٧٠) والموجة الثالثة (١٩٨٠) قد أوضحا الإطار العام لفكره المستقبلى . فالكتاب الأول أشار إلى مشكلة التكيف مع التغيرات المتسارعة ، التى باتت تحدث بمعدل لم تعرفه البشرية من قبل ، بسبب ثورة العلم والتكنولوجيا وآثارها المجتمعية الكبيرة . ويلاحظ أنه فى الفترة نفسها (منذ ربع قرن من تاريخ نشر الكتاب) قد ظهرت أعمال هامة أخرى تدور حول نفس الموضوع ، أذكر منها «جمهورية التكنولوجيا» لبورشتين ، و «بين عصرين» الاستراتيجية الأميركية فى العصر التكنوترونى «لبرجنسكى» (لاحظ هنا أن كلمة تكنوترونى Technotronic مشتقة من كلمتى تكنولوجى والكترونى) ، ورغم كثرة ما قدم بعد ذلك من معالجات للموضوع ، فلم يحظ أى عمل آخر بشهرة «صدمة المستقبل» ، لكننى أود أن أشير إلى عمل حديث ، ظهر فى مطلع التسعينات ، وهو كتاب أورنشتاين وإيرليش «عقل جديد لعالم جديد» (وتوجد له ترجمة عربية قام بها د. أحمد مستجير ، وأصدرها المجمع الثقافي بأبو ظبى) . هذا الكتاب يوضح أننا قد غيرنا العالم بأيدينا بصورة جعلته أقل ملاءمة لنا (كنا أكثر تكيفاً مع العالم الذى صنعنا عن العالم الذى صنعناه) ، ويقدم لذلك تفسيراً نابعاً من طبيعتنا البيولوجية ، فجهازنا العصبى لا يتأثر إلا بالتغيرات المثيرة ، ويرصد مقدمات الأحداث ونهاياتها ، بصورة أكبر بكثير من رصد التراكمات الوسيطة والإشارات الضعيفة .

هكذا استفحل تلوث البيئة وصار مشكلة كوكبية ، وهكذا تغيرت أنماط استهلاكنا مع الدعاية المثيرة لكل منتج ، التى لا تترك مساحة للاستيعاب المجتمعى لآثاره . بل وهكذا سقطت الكتلة الشرقية ، دون أن نرصد بشكل كاف التراكمات الوسيطة التى أدت إلى سقوطها (وإن كنت أكرر قناعتى بأن هناك من رصد ذلك ووظفه) . ولعل ذلك يفسر أزمة الدراسات المستقبلية التى ألمحنا لها سابقاً ، وميزة الفكر المستقبلى المنطلق من فلسفة ورؤية شاملة ،

قادرة على استيعاب التفاصيل ضمن الإطار العام لهذا الفكر ، مما يقلل أخطاء الرصد والاستشراف فى آن واحد .

هذا عن صدمة المستقبل ، فماذا عن الموجة الثالثة ؟ إنه كتاب يُنَظِّر للتحولات الكبرى فى تاريخ الحضارات البشرية . فالموجة الأولى هى موجة الحضارة التى قامت على أساس الزراعة، والموجة الثانية جاءت بظهور الصناعة . أما الموجة الثالثة ، التى تتعلق بالحضارة الجديدة ، فقد كانت محصلة الثورة العلمية والتكنولوجية . وإذ يشرح توفلر بالتفصيل مميزات كل موجة حضارية ، فلا يمكن نفى التداخل بينها فى كثير من المجتمعات ، لكن النتيجة المؤكدة أننا أمام حضارة بازغة ، هى حضارة «عصر المعلومات والمعرفة» . ومرة أخرى ، رغم وجود بعض الأعمال الشهيرة التى ترصد التوجهات الكبرى المواكبة لبزوغ الحضارة الجديدة ، والمحللة لآثار تداخل الموجات ، وبالذات الانتقال من مجتمع الصناعة إلى مجتمع ما بعد الصناعة ، أو مجتمع المعلومات ككتاب دانييل بل عن «مجتمع ما بعد الصناعة» وإصدارات نيسبت عن التوجهات الكبرى وتطبيقاتها فى المجتمع الأميركى ، وبالذات كتابه «التوجهات الكبرى ٢٠٠٠» وكتابه الأحدث عام ١٩٩٦ عن التحولات الكبرى فى آسيا ، وكيف ستشكل صورة مستقبل العالم ، إلا أن كتاب الموجة الثالثة يبقى الأشهر . ولسلاسة وجاذبية وقوة منطقه أثرى بعض المهتمين بالفكر المستقبلى عندنا باجترار ما فيه من أفكار عشرات المرات دون إضافة أو إبداع . هذا فى الوقت الذى تعج فيه الساحة بالكثير من الاجتهادات، التى تنبنى على الموجة الثالثة أحياناً ، أو تدقق ملامحها فى هذا المجال أو ذاك ، أو حتى تتجاوزها فى كثير من الأحيان .

وأذكر فى هذا الصدد أمثلة قليلة ، مثل كتاب ديتشوالد وفلور عن «موجة العمر» ، الذى يرصد المتغير الهام فى متوسط عمر الإنسان وزيادته الملحوظة فى معظم المجتمعات ، وآثار ذلك فى مستقبل هذه المجتمعات . أذكر أيضاً كتاب «ما وراء المعلومات» ، الذى يقارن بين الذكاء الطبيعى وتطوره الذى أوجدنا ، والذكاء الاصطناعى وتطوره الذى أوجدناه ، وكيف

سيتعايشان معاً (وقد صدرت لهذا الكتاب ترجمة قام بها مصطفى فهمى – المجلس الأعلى للثقافة) .

ناهيك طبعاً عن سيل الكتب عن مستقبل المؤسسات وتنظيمها وإدارتها ، وعن موقف المشكلات البيئية فى حضارة الموجة الثالثة ، وكيف يصب كل ذلك فى تشكيل النظام العالمى الجديد .

ولكن : ماذا فعل توفلر وزوجته بعد «الموجة الثالثة» ؟ لقد عمدا إلى تطبيق الإطار العام لفكرهما المستقبلى فى دراسة موضوعات على أعلى درجة من الأهمية : تحول القوة ومستقبل الحرب والسلام وتكيف الشركات والمؤسسات مع المتغيرات المتلاحقة ، بالإضافة إلى طيف من الحوارات التى تشرح تصوراتهما عن مستقبل الكثير من الأنشطة البشرية ، ففى «تحول القوة» (١٩٩٠) يتأكد دور المعرفة فى حساب قوة مجتمعات المستقبل ومنعتها ، حيث لا تغنى عنها الأشكال التقليدية للثروة أو العنف . وهكذا تكرس دخول البشرية إلى عصر المعلومات ، وأهمية الاستفادة من معطياته . أما «الحرب وضد الحرب» (١٩٩٣) فيحكى لنا عن دخول المعلوماتية فى إدارة حروب المستقبل وسلامه ، ويحكى تجربة العسكرية الأميركية من نكسة فيتنام إلى قيادة التحالف فى أول حرب طبقت فيها أحدث التقانات فى الخليج ، معلنة بشائر انتصار البرمجيات Software على الصلب ، ومؤكدة أن القنابل الذكية التى استخدمت فيها ماهى إلا إشارة باهتة لأسلحة المستقبل ، ولدور الروبوطات فى اتخاذ القرارات . كما يحكى لنا الكتاب عما فى الجعبة من إمكانات لتطوير الأسلحة البيولوجية بواسطة الهندسة الوراثية واستخدام الواقع الافتراضى Virtual Reality لتضليل العدو وما يمكن تسميته «بالمعارك بلا دماء» عن طريق استخدام مولدات الموجات تحت الصوتية ... الخ . وفى الوقت نفسه ، يؤكد الكتاب على أن الأشكال الجديدة للحرب تتطلب أشكالاً جديدة لصنع السلام ، ويستشرف إمكانية نشأة مؤسسات تعتمد «ربحيتها» على المحافظة على السلام فى منطقة معينة من العالم . أخيراً ، اعتقد أن كتاب «الشركة المتكيفة» (١٩٨٥) يستحق وقفة قصيرة . فلقد كان قبل

نشره تقريراً سرياً أعد لشركة الاتصالات الكبرى AT & T ، ثم انتشر تدريجياً بتصوير نسخ للتداول ، حتى عرف على نطاق واسع وصار من كلاسيكيات تطوير إدارة الأعمال والمؤسسات . لقد تنبأ التقرير بكثير مما جرى فى سوق العمل فى مجالات الاتصالات وبظروف تفتيت أو إندماج الشركات العملاقة، وصار دليلاً عملياً لطريقة اتخاذ القرار فى المؤسسات ، وتوضيح حاجتها إلى مديرين راديكاليين ، وكيفية التعامل مع قوى العمل والاحتياجات المتغيرة للسوق ، ولتنظيمها الهيكلى بشكل عام .

ونود قبل أن نسترسل ، أن نستعيد الملاحظة «غير العابرة» التى ذكرناها عن أهمية استعراض الفكر التوفلرى – لو صحت التسمية رغم ما يوجه إليه من نقد ، باعتباره طرحاً موجها لغير المتخصصين – ونحن نعرض الكتاب الأخير عن الحضارة الجديدة و «سياسات الموجة الثالثة» . وبنية الكتاب خير برهان على ذلك . فهو يتكون بعد الافتتاحية من تقديم بقلم نويت غنغريش، الذى يصفه توفلر بالمحافظ الثورى المستقبلى ، وتسعة فصول تتضمن فصلين جديدين فقط (السابع والثامن) . أما الفصول الأخرى ، فمأخوذة بتصرف تقتضيه وحدة العمل – من ثلاثة كتب سابقة : الموجة الثالثة (الأول والتاسع) والحرب وضد الحرب (الثانى والرابع) وتحول القوة (الثالث والخامس والسادس) ... ولعلنا ، ونحن نناقش الكتاب المذكور ، نقدم بذلك نموذجاً يحتذى فى تركيز المشاريع الفكرية الكبيرة فى حيز معقول وميسر للقاعدة العريضة ، التى يصعب عليها متابعة واستيعاب العديد من المجلدات ، التى تصدر فى العلوم الاجتماعية والفلسفة بالذات . ويمكن فى السطور التالية التعرض للأفكار الرئيسية لهذا الكتاب التركيبى الهام .

يرصد الكتاب العديد من الأزمات المجتمعة فى وقت واحد ، بما يصاحبها من إحساس بصدمة المستقبل وفقدان المعانى التقليدية لكثير من المصطلحات (اليمين واليسار – المحافظة والتقدم ... الخ) . ويرى أننا أمام نهاية ما قبل التاريخ The End of Pre History ، ولسنا أمام نهاية التاريخ كما ذكر فوكوياما . إننا

نشهد نهاية حضارة وبزوغ أخرى . والصراع الأعظم فى مرحلة التحول المتسارع يأتى من تصادم موجتين حضاريتين فى أميركا والعالم المتقدم بشكل عام – الموجة الثانية الخاصة بحضارة الثورة الصناعية والموجة الثالثة الخاصة بحضارة عصر المعلومات . أما إذا نظرنا إلى العالم ككل ، فصراع الحضارات ليس بين الإسلام والغرب (كما يعتقد صمويل هنتغتون) أو بسبب انحدار أميركا ، قائدة النظام العالمى الحالى (بول كنيدى) ، لكنه صراع بين الموجات الثلاث الزراعية والصناعية والمعلوماتية (ورموزها : المنجل ، وخط التجميع ، والكمبيوتر !!) . إن الصراع يسرى كالتيار الكهربائى ، والتوتر يخفى المد المتنامى الخاص بالموجة الثالثة ، التى لم تتجمع قواها إلا فى العقود الأخيرة ، بعد أن استمرت الموجة الأولى آلاف السنين (٨٠٠٠ – ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) والموجة الثانية قرابة الثلاثة قرون (منذ ١٦٥٠ – ١٧٥٠ بعد الميلاد ، وحتى الخمسينات من القرن الحالى ، عندما تعدى عدد أصحاب الياقات البيضاء المشتغلين بالانتاج الجديد القائم على المعرفة عدد أصحاب الياقات الزرقاء ، الذين يرمزون إلى العمل اليدوى فى خطوط الانتاج بمصانع الموجة الثانية) . وعلى ذلك ، فالبديل المحدد الذى تقدمه الموجة الثالثة يتمثل فى المعرفة التى تمثل أساس اقتصادها الرمزى ، وتؤدى إلى تنوع الانتاج بدلاً من الانتاج الكبير ، وكثرة المنتجات الأصغر والأخف والأدق ، مع قلة تكلفة النقل واستخدام المواد الجديدة ، التى تغنى عن كثير من المواد الخام ... الخ .

إن المعرفة هى أساس تكوين الثروة فى الاقتصاد الرمزى الجديد ، والفكر والإبداع هما رأس المال غير الملموس ، وكل ذلك يؤدى إلى ضرورة إعادة هندسة المؤسسات والمنظمات ، وعلاقة جديدة تماماً بالزمن ، فالنقود تجرى بسرعة الضوء ، والمعلومات يجب أن تكون أسرع ، وكل لحظة أثمن من سابقتها ... هذه هى اقتصاديات الزمن الآتى ، وهذا هو أساس تكوين الثروة فى العالم الجديد . لم تعد عوامل الانتاج التقليدية صالحة (الأرض – العمل – المواد الخام – رأس المال) ، حيث حلت محلها البيانات والمعلومات والرموز

والقيم والقدرة على الإبداع ، بعيداً عن كتب القواعد والتوجيهات . ولم يعد المصنع الكبير هو النموذج ، بل صارت الغلبة لوحدات العمل الصغيرة والتكامل المنظومى الذى يسمح بسريان المعلومات وزيادة الدقة .

وفى ضوء التصور السابق ، يشرح الكتاب صدام التجارب الاشتراكية مع المستقبل . فماذا ننتظر من الإقلال من قيمة العمالة العقلية باعتبارها غير منتجة ؟ ومن تمجيد التصنيع القائم على الجهد العضلى ؟ ومن المركزية الشديدة والخوف من سريان المعلومات ؟ وماهى الثروة التى تؤم اليوم ؟ إن تأميم العقل والفكر المبدع ليس عملياً وليس مرغوباً كما نعرف . ومع ذلك... فالموجة الثالثة تحارب فى أميركا والغرب أيضاً من أساطين الموجة الثانية، الذين يعادون التغيير . وبسبب ذلك رشح الحزب الديمقراطى فى وقت مضى ماندیل بدلاً من هارت صاحب الفكر الجديد ، ولهذا قاوم الهولنديون اتفاقية النافتا . لكن قوى الموجة الثالثة تتصاعد برموزها الشابة (آل غور وغنغريتش ، رغم اختلاف انتمائهما الحزبى وقبل ابتعادهما عن دائرة الضوء) .

إن أجندة الموجة الثالثة تتضمن رفض نموذج المصنع القديم ، الذى ينعكس على التنظيم الاجتماعى بشكل عام ، وكذلك رفض المجتمع الكتلى Massified (المصاحب لرفض الانتاج الكبير) ، ورفض المركزية مع زيادة التنوع والمرونة (بدلاً من النمطية والانتاج الكبير) ، مع الاتجاه إلى تفريع المؤسسات والشركات وتوزيع الاختصاصات . ويتنبأ الكتاب فى هذه الأجندة ، بعودة قيمة العائلة مع السماح بالتنوع لأفرادها . وينتهى الكتاب بفصل عن ديمقراطية القرن القادم ، مقدماً الشكر للآباء المؤسسين الذين انتهى دورهم بحلول الموجة الثالثة ، التى لا معنى فيها للأغلبية مع انتشار وقوة الأقليات وامتداد النخب وظهور وسائل مباشرة للتعبير عن الرأى (الدعاية الانتخابية والتصويت عن طريق شبكات الكمبيوتر مثلاً) .

والخلاصة أننا فى حاجة إلى شكل جديد للتنظيم السياسى ، كما هو الحال بالنسبة لاحتياجنا إلى أشكال جديدة لوحدات الانتاج والعائلة ، وكل

مكونات حياتنا فى ظل الموجة الثالثة ، لقد ذكر غنغريتش فى تقديمه للكتاب أن أميركا دخلت الموجة الثالثة يوم ٥ يناير ١٩٩٥ ببدء تشغيل نظام توماس ، الذى يسمح للأفراد بالاتصال الإلكترونى بمكتبة الكونجرس والحصول على ما يريدونه من وثائق . وعلى كل الأمم التى تتطلع إلى المستقبل أن تحدد كيف ومتى تدخل إلى هذه الحضارة الجديدة وتشارك فى صياغتها بكل ما فيها من إمكانات للثراء والتنوع .

بعد هذا العرض ، دعونا نتطرق إلى الإشارات الموحية التى وردت فى مشروع توفلر ، وفى الأعمال الفكرية الأخرى التى جاءت فى ثناياه ، التى تمهد لصدمة المستقبل الثانية ، مع ذكر بعض أشكال التقادم التى حدثت بالنسبة لمشروع توفلر بالذات .

obeikandl.com

ثانياً: الإشارات الموحية لصدمة المستقبل الثانية

إن استقراء الإشارات الموحية لصدمة المستقبل الثانية يعتمد بالدرجة الأولى على تحديدنا لطبيعتها ، فإذا كانت الإنسانية تعانى عند توفلر من صدمة التكيف ، بحيث يصف مشروعه باعتباره «نظرية عريضة للتكيف» ، فإن الإنسانية فى الصدمة الجديدة تواجه صدمة التطرف والتجاوز ... وقمتها تجاوز الإنسان لإنسانيته . فماهى الإشارات التى مهدت إلى هذا الوضع ؟

أول الإشارات يتمثل فى أن الثورة العلمية والتكنولوجية بمستجداتها تلعب نفس الدور الذى لعبته فى الصدمة الأولى ، باعتبارها قوة الدفع الرئيسية للتغير . لقد كان توفلر دقيقاً عندما ذكر القوتين التوأم للتغير الذى أحدثته هذه الثورة . التقادم والتسارع ، وكان موفقاً عندما أشار إلى ملمحين رئيسيين لهذا التغير : المعدل والاتجاه .

بالنسبة للتقادم حكى لنا توفلر حكاية ريكى جالانت العجوز الذى مات فى الحادية عشرة من العمر ، متأثراً بمرض الشيخوخة المبكرة ، وأوضح أن حالته توضح أثر الثورة العلمية والتكنولوجية فى البلدان المتقدمة ، التى تفقد المعانى التقليدية لكثير من المصطلحات ، وتتقادم فيها وسائل الانتاج التقليدية بحلول الانتاج كثيف المعرفة وسيادة الاقتصاد الرمزى . ويؤدى ذلك إلى أزمة تقادم التنظيم المجتمعى بكل وحداته ومؤسساته . هذا ما جعل توفلر يعلن «موت الدوام» ، فقد صارت كل أمور حياتنا قابلة للتقادم السريع ، وصارت حضارتنا معرضة للإصابة – أو أصيبت فعلاً – بالشيخوخة المبكرة .

وللتسارع تجليات عديدة ، لعل أكثرها مباشرة ما يتعلق بقدرة الإنسان على الانتقال من مكان إلى آخر بنفسه ، أو عن طريق ما يصنعه بيديه (تسارع السرعة !!) . ألا يسترعى انتباهنا فارق المقارنة بين الانتقال بسرعة الدواب ، التى لا تتعدى ثمانية أميال فى الساعة فى العصور القديمة ، وسرعة الانتقال الحالية بالطائرات التى تخترق سرعة الصوت والصواريخ العابرة للقارات، ناهيك بالطبع عن تسارع المتغيرات السياسية والاقتصادية التى شهدتها العقود الأخيرة من القرن العشرين ، وربط ذلك كله بتسارع الاكتشافات العلمية والتكنولوجية المصاحبة والداعمة للتغير .

إن صدمة المستقبل عند توفلر تعد «ظاهرة زمنية» ، تتم عن طريق تراكم المعطيات الضاغطة لثقافة جديدة على الثقافة القديمة (أو المتقادمة) . ويؤدى هذا التراكم ، الذى يصعب وصفه بالكمى لسرعته الكبيرة ، إلى قطيعة نوعية من الماضى . وهنا يرصد توفلر الفارق بين معدل التغير واتجاهه ، لأن الاتجاه كلما كان ابتكارياً ومفارقاً للمتعارف عليه ، ازداد الدفع المتسارع نحو القطيعة مع الماضى والحاضر معاً (لقد صار الحاضر لحظة عابرة يصعب الإمساك بها) . وخلال إكماله لمشروعه المستقبلى ، أشار توفلر إلى العديد من أشكال التغير فى الاتجاه على آثار الثورة العلمية والتكنولوجية فى مجال المعلوماتية والتكنولوجيا الحيوية بالذات (فعلى سبيل المثال يذكر قراء توفلر حديثه عن الاستنساخ فى وقت مبكر عام ١٩٧٠) . وخلص – كما شرحنا – إلى مفهوم تصادم الموجات الحضارية الزراعية والصناعية والعلمية التكنولوجية، وقيمها المجتمعية شديدة التفاوت فى رصده للحضارة البازغة .

إن مشروع توفلر قد يحسب له ، ولا يحسب عليه ، أنه بذكر التسارع والتقادم والتمييز بين المعدل والاتجاه ، قد حمل بذور تقادمه الخاص !! وقبل أن نشرح ذلك ببعض التفصيل ، نود أن نرصد الإشارات الموحية لصدمة المستقبل الثانية فى بعض الأعمال الفكرية الأخرى التى ذكرناها فى عرضنا السابق . إننى أعود كثيراً إلى الفكرة المحورية فى كتاب بورشتين «جمهورية التكنولوجية» ، والتى تتلخص فى أن التكنولوجيا تولد الطلب المستمر عليها بالتغير المستمر المصاحب بالإعلام الذكى ، الذى يشعرنا «بالحاجة الملحة» إلى كل جديد تقدمه ، مهما كان بعيداً عن أى مفهوم متعارف عليه للحاجات الأساسية . إنها تنمى نفسها بنفسها ، وتغذى بشراسة النزعة الاستهلاكية فى طلبها . مع الاعتراف طبعاً بأن نسبة لا بأس من الجديد تحمل حلولاً عبقرية لمشاكل حقيقية ، حتى وإن كانت النتيجة اتساع الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون ، أو إلى العصف بالقديم المتعارف عليه ، الذى لا يفقد قدرته التنافسية اقتصادياً فقط ، بل ثقافياً واجتماعياً أمام الجديد المنهمر . ويقدم لنا برجنسكى النموذج الأشهر لجمهورية التكنولوجيا فى كتابه «بين

عصرين : الاستراتيجية الأمريكية فى العصر التكنوترونى» ، ليؤكد دور التكنولوجيا والالكترونيات فى الانتقال إلى عصر جديد . وجدير بالذكر أن هذين الكتابين قد ظهرا فى نفس وقت ظهور «صدمة المستقبل» لتوفلر فى مطلع السبعينيات من القرن العشرين . لقد وصف دانييل بل فى وقت مواكب لذلك المجتمع الذى نجم عن هذا التحول «بالمجتمع ما بعد الصناعى» ، وذلك قبل أن ينشر توفلر كتابه عن «الموجة الثالثة» عام ١٩٨٠ .

وبعد عقدين من الزمان تقريباً ، ومع صدور «تحول القوة» لتوفلر عام ١٩٩٠ ، ذكرنا كتابين هامين آخريين أشرنا إليهما أيضاً . أولهما يشير إلى التغير المجتمعى الذى تحدثه زيادة متوسط العمر عموماً ، وفى المجتمعات المتقدمة بالذات . لقد وصف ديتشوالد وفلور ذلك «بموجة العمر» ، التى تصاعدت مع نهاية القرن العشرين إلى الحديث عن تجاوز المائة بكثير وتأخير الشيخوخة واعتبارنا عند البعض آخر الأجيال الفانية !! وبعد التنظير لمجتمع المعلومات ، جاء من يحدثنا عن «ما بعد المعلومات» ، لنبدأ صفحة جديدة لتناول الذكاء الاصطناعى والواقع الافتراضى والحياة الاصطناعية والعلاقات الجديدة بين الإنسان والآلة . وهنا أود أن أختم هذه القائمة الطويلة من الإشارات بذكر كتاب أرنشتاين وإيرليش «عقل جديد لعالم جديد» . لقد ذكرنا أن رسالة الرئيسية هى أننا «كنا أكثر تكيفاً مع العالم الذى صنعنا من تكيفنا الحالى مع العالم الذى صنعناه» . هل يكمن حل هذه المشكلة فى نظرية للتكيف كما يقترح توفلر ، أو بنظرية للتدخل كما يدعو إلى ذلك أنصار تجاوز الإنسانية نفسها ؟ هذا هو السؤال ، الذى نناقش فى ضوئه مدى تقادم مشروع توفلر القائم على التكيف ، الذى وصفه أحد قرائه على الانترنت بأنه يمثل أفكاراً قديمة تعود إلى الستينات ، حيث ذكر أنه قد ولد عام ١٩٥٩ وولد والده عام ١٩٢٧ ، ويدرك أن فكرهما قد تشكل فى عالمين مختلفين ، ومن هنا تأتى الحاجة إلى تنظير مختلف . لكن هنالك من يرى – وأرى معهم – أن النظرية لا يشترط أن تكون صحيحة تماماً ودائماً لتكون مفيدة . ويدللون على ذلك براسمى الخرائط فى العصور الوسطى ،

الذين استفدنا كثيراً من عملهم رغم اكتشاف بعده الكبير الدقة . لذلك فضلت أن أذكر هذه الإشارات التى توضح فائدة مشروع توفلر ، حتى وإن كان الحديث عن تقادمه ومبررات تجاوزه .

إن نقد مشروع توفلر هنا ينطلق من الحكم على مدى ملاءمته لتجليات الكوكبة أو العولمة باعتبارها عملية تاريخية ضاغطة لا يمكن الإنعزال عنها . إننى أعترف أن مفهوم «تصادم الموجات الثلاث» ، الزراعية والصناعية والعلمية التكنولوجية بكل قيمها وتقاليدها وعقائدها وتحليلاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية عموماً ، مثل لدى أداة منهجية مناسبة لقراءة الكوكبة فى بدايات شيوع الحديث عنها . ومع تصاعد «المد الكوكبى» ، ازدادت قناعتى بالحاجة إلى التعديل والتطوير ، بل والتغيير . لكننى أعترف أيضاً بأن ما فى مشروع توفلر من إشارات يحمل بذور هذا التغيير ، الذى كان نتيجة طبيعية لما ذكره هذا المشروع عن التقادم والتسارع فى المعدل والاتجاه معاً . إننا لا نتعامل هنا مع مفهوم الموجات من زاوية فيزيائية فقط ، ولكن من زاوية أنثروبولوجية إنسانية . إنها تتولد نتيجة لأفعال البشر ، ثم تبدأ رحلة التكيف معها والسباحة مع أو ضد تيارها . وفى مشروع توفلر ، الذى استبعد مرحلة الصيد وجمع الثمار ولم يعدها موجة من الموجات الحضارية ، استمرت الرحلة مع الموجة الأولى (الزراعية) عدة ألفيات ، ثم استمرت مع الموجة الثانية (الصناعية) عدة قرون ، وبدأت الرحلة مع الموجة الثالثة (موجة الثورة العلمية . التكنولوجية القائمة على المعلوماتية وانفجار المعرفة) منذ عدة عقود فقط . وها نحن نتحدث عن ضرورة التغيير ، وليس مجرد التعديل أو التطوير . ويرى البعض عدم كفاية التكيف لإحداث التغيير المطلوب . إن المشروع الذى قام على التكيف مع التغير المتسارع حمل بذور الحاجة إلى تغيره ، فماذا جرى ؟

إن التعامل الفيزيائى الأنثروبولوجى مع الموجات قد يعطينا مفتاح الإجابة ، وهو أمر معروض – كما أقول دائماً – للنقد أو النقض !! إن تفاعلنا مع الموجة الثالثة ، ومع تصادم الموجات الثلاث عبر المشهد البشرى كله ، أدى

إلى تولد موجة عاتية جديدة تعظم وتضخم كل امكانيات وتناقضات الموجة الثالثة وتصادمها مع الموجتين السابقتين لها . والتعظيم والتضخيم هنا يمكن فهمها والتمثيل لهما فيزيائياً وأنثروبولوجيا . فمن الأمثلة الفيزيائية ، يحضرنى المثال الأشهر الخاص بالتفاعل المتسلسل الذى يؤدى إلى الانفجارات الذرية والنووية (أرجو ألا تعتبر أمريكا هذه الفكرة من أفكار الدمار الشامل ، التى لا يحق لغيرها مجرد التحدث عنها .... إن هذه الملحوظة ليست تعبيراً عن سخرية مريرة ، بل هى من تجليات التناقض الحاد فى الموجة الجديدة) . وكمثال فيزيائى آخر ، يعبر بوضوح عن التضخيم ، يمكن أن نذكر أشعة الليزر التى تنتج عن استثارة المادة ، بشكل لا تعود به مكوناتها إلى مستوياتها الطبيعية ، وما يصاحب ذلك من انطلاق شعاع الليزر الذى يجرى تضخيمه وتوجيهه بالمرايا (لنتذكر أحداث ١١ سبتمبر وأشق الدعوة للحرب التى أطلقتها، والمرايا الإعلامية التى ضخمتها !!) . ومن الناحية الانثروبولوجية ، يمكننا أن نرصد ما أحدثته المعارف العلمية والمستحدثات التكنولوجية من تفاعلات متسلسلة فى حياة البشر ، وما أطلقته من طاقات جرى تضخيمها تباعاً ، بشكل أدى إلى تزايد الإحساس بالقطيعة مع الماضى والحاضر ، حيث يعد الأخير «ماضياً معاصراً» (بدءاً بالحديث عن أمية الكمبيوتر وليس الأمية الأبجدية ، وانتهاء بالحديث عن نهاية التاريخ والمستقبل ما بعد الإنسانى) .

إن ما تحمله هذه المعارف والتكنولوجيات من مفارقة نوعية عما سبقها تغذى الإحساس المذكور باستمرار . هل نحتاج إلى تكرار الأمثلة ؟ لا بأس ، وإن كان يكفى أن نذكر الإنترنت والأقمار الصناعية والروبوطات الذكية والواقع الافتراضى والكمبيوتر الكمى والچينوم والاستنساخ ، والتحوير الوراثى... والبقية تأتى . بل لعل بعضها قد أتى فعلاً (زراعة شرائح معلوماتية لأول مرة فى إنسان ، تجعله يتواصل مع الأجهزة الخارجية ، وانتاج بكتريا لها مسار حيوى جديد يجعلها تضيف حامضاً أمينياً لا يوجد بشكل طبيعى فى الكائنات الحية ، أو بمعنى آخر انتاج نوع جديد من الكائنات الحية ، والعمل على بناء برنامج وراثى اصطناعى لميكروب ووضعه فى خلية مفرغة من

برنامجها الوراثى والسماح بتكاثرها ... هل تكفى هذه الأمثلة ؟!!) . لقد أدى التفاعل المتسلسل والتضخيم ، الناجمان عن كل ذلك ، إلى تغيرات حادة فى أنماط حياة البشر وأنشطتهم . والأهم من ذلك ، تغير طريقة تفكيرهم فى المستقبل ، والإحساس بصدمة جديدة للمستقبل ، تحملها لهم الموجة التى تولدت عما سبق ، والتى سندلل على استحقاقها أن توصف «بالموجة الرابعة» ، مستندين فى ذلك إلى سماتها الخاصة ، التى تجاوزت بها مشروع توفلر ونظريته عن التكيف ، والتى تتمثل قمتها – كما ذكرنا – فى الدعوة إلى تجاوز الإنسان لإنسانيته .

obeikandl.com